

وسائل التواصل الاجتماعي ودورها في التحول

من المجتمع المحلي إلى المجتمع الافتراضي

د. د. عمر القذافي هيبه

الملخص

شهد العالم منذ منتصف القرن الماضي ثورة معرفية ومعلوماتية، وسيلتها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، التي وفرت قدرات وإمكانيات معرفية هائلة لم تكن متاحة من قبل؛ من سماتها الانتشار السريع والتأثير في حياة الناس، والسماح لهم بالوصول إلى المعلومات والمعرفة الموجودة في أي مكان بالعالم في نفس اللحظة تقريباً، وكأي تقنية حديثة ومعرفة جديدة، كان لها تأثير على الأسلوب الذي يعيش به الناس، ويتعلمون ويعملون ويتفاعلون مع بعضهم، إذ أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي -شبكة الإنترنت- المركز الرئيسي للاتصال داخل المجتمع المحلي وخارجه على حساب التواصل الاجتماعي الطبيعي، وحلت علاقات وكيانات وجماعات افتراضية محل الجماعات التقليدية تجمع بين أعضائها خصائص ثقافية - أو دينية أو سياسية- أو عاطفية أو مالية، تشكل عصبية افتراضية، ترتبط بقوة رابطة وسيلة التواصل الاجتماعي، والشعور بوحدة الهدف والمصلحة المشتركة، لها مفرداتها وثقافاتها ولغتها وآليات التعامل بين أعضائها تُضفي على المجتمع المحلي وأنظمتها قيماً وممارسات جديدة؛ منها ما هو ايجابي ومنها ما هو سلبي حسب رغبة وحاجة المستخدم لوسائل التواصل الاجتماعي.

هذا مما دفع بالباحث إلى دراسة الآثار الاجتماعية لهذه الظاهرة، وتحليل ما ينبئ به تطورها السريع في تكوين جماعات افتراضية لها مضامين ثقافية خاصة ونوعية، فهل ترقى إلى مستوى تشكيل مجتمع منتج لذات مستقلة، أم أنها مجالات تفاعلية مغتربة؟

الكلمات المفتاحية: وسائل التواصل الاجتماعي، شبكة الإنترنت، المركز الرئيسي للاتصال، علاقات وكيانات افتراضية، البناء الاجتماعي، تحولات سوسيولثقافية، الانطوائية

تمهيد:

إن أبرز ما يميز العقد الأخير من القرن الماضي، وبداية القرن الحالي التقدم الملحوظ في مجال الاتصال وتقنياته. حيث تطورت بشكل ملفت للانتباه، وأصبح لها تأثير واضح في الحياة البشرية بأسرها، وامتدت إلى كافة الأنشطة والمجالات، مما أثر ذلك في البناء الاجتماعي للمجتمعات الإنسانية بشكل عام، ولعل أبرز ما أفرزته هذه التغيرات ثورة الإنترنت، التي أصبحت في متناول شريحة كبيرة من هذه التجمعات عبر العالم، مما جعلها ذات قدرات عالية تحمل في طياتها عناصر التفوق على غيرها من وسائل الاتصال الأخرى، ولهذا فرضت نفسها على الإنسان المعاصر، حيث شاع استخدامها واتسعت خدماتها، عبر الانتشار الواسع للإنترنت الذي يُعد واحداً من الاهتمامات الرئيسية في العلوم الاجتماعية عموماً وعلم الاجتماع خصوصاً، ذلك لأنها تركت تغييرات في المجتمع من خلال ما طرأ ويطرأ من تحولات سوسيوثقافية على ملامح حياتنا اليومية، من خلال التنامي والتزايد السريع في أعداد مستخدمي شبكات الإنترنت والمستهلكين لمضامينها الثقافية والاجتماعية. وذلك في ظل إتاحة هذه الخدمة في المنازل والمؤسسات والمراكز الثقافية ومقاهي الإنترنت، لا سيما في ظل غياب القوانين والضوابط الاجتماعية التي تحكم إيقاع هذه الظاهرة، وعدم وجود معوقات أمام الاندفاع في استخدامها، وهذا ما جعل مستخدمو الإنترنت إطاراً جديداً للتفاعلات الاجتماعية، وخروجها عن طبيعة الجماعات الاجتماعية التقليدية، هذه التفاعلات التي من شأنها أن تؤدي إلى تشكيل، أو إعادة تشكيل لهويات مستخدمي الإنترنت في المجتمع الافتراضي.

لقد أصبح الفعل الاتصالي تياراً مجتمعياً جارفاً لا يمكن لأحد أن يكون بمعزل عنه، في زمن ما بعد الصناعة، أو ما بعد الحداثة الذي أفرز ما بات يعرف بالإنسان "الإنترنت"، الذي يسأل نفسه ماذا سيحصل بعد؟ بدلاً من السؤال التقليدي ماذا سنفعل؟ لقد أصبح الإنسان أمام كم هائل من البيانات والمعلومات والثقافات والأفكار والمشاعر، الأمر الذي يجعلنا نقول: إن ظاهرة الوفرة الاتصالية سمة هذا العصر، التي تشكل في كثير من الأحيان عبئاً على الفرد، تجعله في مواقف محيرة ومربكة تدفعه للعزلة والانطواء، وعدم الاكتراث، أو الانشغال بما يدور حوله من أحداث الواقع المعاش، ولهذا فإن التأثيرات متضاربة؛ فمنها ما يتسم بعدم الاستجابة للنصح والتوجيه وأخرى تتسم ببرودة الانفعالات النفسية، وأحياناً بضعف التأثير بالانتقادات، مع ضعف التواصل اللفظي، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه "الاغتراب" أو الانطوائية.

إشكالية البحث :-

في الوقت الذي يعد هذا التدفق المعلوماتي إثراء للفكر الإنساني، فهناك من يرى أنه مارس انتهاكا عقليا، وضغطا نفسيا واضطرابا عقائديا، حيث إنه نجح في الربط بين الناس من مختلف أرجاء العالم، تجمع بينهم خصائص ثقافية، ودينية، وسياسية، وعقائدية، واقتصادية، في كثير من الأحيان، فهذا العدد الهائل من الأفراد يلتقون عبر وسائل التواصل الاجتماعي في شكل مجتمعات افتراضية أكثر مما هي واقعية "مجتمع محلي" لتأكيد مصالحهم المشتركة، خاصة بعد ظهور مفهوم "الجمهور الفاعل" الذي أصبح جزءا من العملية الاتصالية التفاعلية بدلاً من أن كان متلقيا سلبيا. (هيل، 2004: 106-109).

ومن جملة ما أفرزته تقنيات وسائل التواصل الاجتماعي من وجهة نظرنا مجالات اجتماعية متعددة ومعقدة، من حيث مضامينها على خلاف ما كان عليه المجتمع التقليدي، الذي يتميز بمجالات اجتماعية ذات المضامين الثقافية المتطابقة، وربما هذا ما يدفعنا إلى الانطلاق من أطروحة كل من (ماكس فيبر) و(زيمل) الذي يرى كل منهما أن مجالات الانتماء متعددة ومتنوعة، إلا أن الفرق بينهما يكمن في نتيجة هذا التعدد والتنوع على هوية الفرد، ف(ماكس فيبر) يرى أنه كلما تعددت انتماءات الفرد، أدى إلى الاعترا ب، وتشتت المعاني وفقدانها، بينما (زيمل)، يرى أن تعدد مجالات تفاعل الفرد مؤش ر ودليل على قوته وقدرته واستقلالية في التعامل والتفاعل في هذه المجالات، وانطلاقاً من هذه الرؤية ارتأينا ضرورة تناول هذه المتغيرات للتعرف على ما إذا كانت وسائل الاتصال الحديثة مجالاً لتشكيل فضاءات افتراضية ذات هوية فردية، أو جماعية للمستخدمين، أم مجالاً ينتج استلاب وتحطم للهوية.

وعلى ضوء ذلك كانت صياغة إشكالية هذه الدراسة كما يلي:

هل أن مستخدمي وسائل الاتصال الاجتماعي يتفاعلون في مجالات اجتماعية افتراضية ذات مضامين ثقافية خاصة ونوعية ترقى إلى مستوى تشكل مجتمع منتج لذات مستقلة؟ أم أنها مجالات تفاعلية استهلاكية منتجة لذات مغتربة؟

الأمر الذي حدا بالباحث لدراسة الأثر الاجتماعي المترتب على ذلك ، ومحاولة استشراف أفاق استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وتحليل ما ينبئ به تطورها السريع من أجل بناء تصورات للتعامل مع الظاهرة، وتأثيرها على مكونات المجتمع.

أهمية البحث:

ترجع أهمية هذا الموضوع في كون أن وسائل التواصل الاجتماعي قد أصبحت متغيراً حيوياً، ضمن آليات التغير والحراك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في مجتمعنا المعاصر.

كما يكتسب هذا الموضوع أهميته من الانتشار الواسع لوسائل التواصل الاجتماعي وتعاظم دورها ونفوذها في كافة الأوساط الاجتماعية، الغنية، والفقرية، القريبة، والبعيدة، ومن ثم تنامي التأثيرات الناتجة عنها مستقبلاً، مما يستوجب تتبع أبعادها المجتمعية بالدراسة والتحليل، وذلك بطرح تساؤلات حول حدود الدور المتوقع لوسائل الاتصال الاجتماعي، وتأثيراتها المحتملة، وكيف يمكن رصدتها والتعامل معها، وما المجالات الأكثر تأثراً وارتباطاً بتطور وسائل الاتصال؟ مع أننا نفترض أن لها تأثيرات أعمق في مجالات عدة، كالسياسة، والاقتصاد، والشؤون الأمنية، والعسكرية، والإعلامية، والعقائدية... وإن هناك ثقافة جديدة ومفاهيم جديدة لعصر جديد، وعليه لن يطول الحديث عن التقدم والحداثة، فعالم ما قبل وسائل التواصل الاجتماعي غير العالم ما بعدها.

أهداف البحث:-

يتسم العصر الحديث بثورة معلوماتية عابرة للقارات، لا تعترف بالزمان ولا تهتم بالمكان، ثورة معرفية تخترق ثقافات الأمم والشعوب، بتقنية فائقة الدقة في الاتصالات، قادرة على تطويع العقول، واختراق الثوابت المحلية الثقافية والأخلاقية والفكرية الراسخة في الذهن البشري، لتذويب تلك الثقافات المحلية في أيديولوجية ذات مصدر واحد، لزعزعة بناء المجتمعات التقليدية، وتحطيم قدرات الإنسان الإنتاجية، وجعله مستهلكاً ينتظر ما يسوق له من أفكار ومعارف وحروب، وسلع جاهزة، ويتباهى باقتنائها أو تمثيلها في مجتمعات افتراضية، مما قد يغرس في هذا الملتقى بُعداً سلبياً تجاه منظومة الفهم التقليدية؛ كمسح وتهميش الثقافة المحلية وتشويه الهوية الوطنية.

ومن ثم فإن هذا الموضوع يهدف إلى رصد بعض الآثار الاجتماعية لوسائل التواصل الاجتماعي على شبكة العلاقات الاجتماعية وبناء الأسرة، للوقوف على مدى أهمية هذه الوسائل وحدود تأثيرها في تغير شكل المجتمع والقناعات والاتجاهات لدى الأفراد، ونشأة ما أصبح يعرف بالفضاء الإلكتروني الذي يضم عدداً من المجتمعات الافتراضية؛ كغرف الدردشة والمجموعات البريدية والفيسبوك وتويتر، وجوجل، وهو عالم مواز للعالم

أو المجتمع الواقعي، يعبر فيه المستخدمون عما لا يستطيعون أن يعبروا عنه في العالم الواقعي، أو ما لا يقدرون على تحقيقه في حياتهم اليومية بسبب قيود وضوابط الزمان والمكان والتنظيمات الاجتماعية، إلى درجة إن وصف أحد الباحثين - المدونين ومستخدمي هذه الوسائل بأنهم مؤرخو العصر. (فايز، 2009: 152).

المفاهيم الأساسية:

يعد تحديد المفاهيم من ضرورات البحث الاجتماعي، حيث يعد المفهوم وسيلة اتصالية يستعين بها الفرد للتعبير عن أفكاره واتجاهاته وتوصيلها للغير من الناس بطريقة فعالة (إبراهيم، 2000: 15)، ومن هذه المصطلحات ما يلي:

● وسائل التواصل الاجتماعي: Social Network

هي مواقع **Websites** مهيأة لإتاحة الفرصة للمستخدمين للتواصل فيما بينهم (الفيسبوك، التويتر، ماسنجر، ياهو، جوجل، يوتيوب... الخ) من خلال وضع رسائل قصيرة ، مكالمات، دعاية، إعلان، معلومات وتطبيقات. إجرائيا هي مجموعة من تطبيقات الإنترنت التي تبنى على أيديولوجية أو تكنولوجية من الويب تسمح بإنشاء أو تبادل المحتوى. سوف نركز في الدراسة على البرمجيات والتطبيقات دون الأدوات المستخدمة، مع علمنا أن التقدم التقني في الأدوات أسهم إسهاما فاعلا في ابتكار وانتشار وسائل التواصل الاجتماعي.

1. الفيس بوك Face book وجوجل Google:

هي وسائل تقدم خدمات للمستخدم للتواصل مع الآخرين، يشاركونهم اهتمامات مشابهة، وهي عادةً ما تتكون من نبذة عن المستخدم، وأساليب مختلفة للتفاعل مع الآخرين، وإمكانية تكوين جماعات افتراضية.

2. يوتيوب You Tube :

هي عبارة عن خدمات تتيح للمستخدمين رفع وسائط الملاحية مختلفة كالصور والأفلام، ووضع نبذة عن المشارك وإمكانية التعليق والتصويت على المحتوى.

3. تويتر Twitter :

هي عبارة عن خدمات تركز على تحديثات قصيرة، تتاح لأي شخص مشترك للحصول على التحديث.

4. البريد الإلكتروني Email - هوت ميل Hotmail - ياهو Yahoo - جيميل Gmail :

هي أنواع متعددة للبريد الإلكتروني، تُعد وسيلة للتواصل بين البشر والمؤسسات الحكومية والخاصة.

• مستخدم وسائل التواصل الاجتماعي

إجرائياً يقصد بهم مرتادي شبكة التواصل للاستفادة من خدماتها التي توفرها، مما يسمح لهم بالتفاعل ضمن هذا المجال ذو المضامين السوسيوثقافية المتنوعة، ومعنى ذلك أن أي شخص له حساب اشتراك في الشبكة، ويوجد في أي مكان في العالم يمكنه الإطلاع على المعلومات بواسطة حاسوبه، ويحصل على الصوت والصورة والمعلومة المعرفية والاتصال بالآخرين في نفس الوقت.

• الهوية:

إجرائياً هي ذات الشخص في الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه، أي كل ما يوحد أفراد المجتمع ويمنحهم سمات حضارية وثقافية تميزهم عن غيرهم من المجتمعات الأخرى. (عمارة، 1998: ص39)، مع ملاحظة أن الهوية تتغير باستمرار وتكتسب سمات جديدة يتبناها وتلفظ أخرى، فهي شيء ديناميكي، وسلسلة عمليات متتابعة تتحول مع الزمن وترتبط مع الأثر الذي تتركه الحضارة.

المقاربة النظرية والمنهجية:

ينطلق هذا الموضوع من أدبيات نظرية التفاعل الاجتماعي والرمزي، التي تؤكد أن الذات لا يمكن أن تعيش دون التفاعل مع ذوات الآخرين - أفراد المجتمع- فالتفاعل يتم من خلال تشكيل المجتمع الإنساني، فالذوات تقوم بعملية التفاعل من خلال العلاقات اليومية بين الجماعات الاجتماعية الصغرى، كالأُسرة والمدرسة وجماعة اللعب والأصدقاء والاتحادات والنقابات، (أبو طاحون، ب.ت: ص501)، (أبياتي، 2012: ص181)، فالأفراد بدافع فطري مجبرون للاشتراك في تفاعلات اجتماعية ذات معنى للانتماء للجماعة، الذي يكاد يكون حاجة تضاهي الغذاء في قهرها، ومسئولية ثقافة المجتمع منح هذا الانتماء.

ويمكن تلخيص القضايا الأساسية للنظرية التفاعلية الرمزية في ثلاث قضايا رئيسية

هي:

1- أن الكائنات الإنسانية تسلك إزاء الأشياء في ضوء ما تتطوي عليه هذه الأشياء من المعاني الظاهرة لها.

- 2- أن هذه المعاني هي نتاج التفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني.
- 3- أن هذه المعاني تُعدل وتتشكل خلال عملية التأويل التي يستخدمها كل فرد في تعامله مع الرموز التي تواجهه.

فالفرد يتفاعل مع الآخرين في جملة من مناشط الحياة اليومية، وله أيضا مجموعة من الأدوار والتوقعات مع الآخرين، وأن للآخرين أدوارا، ولهم توقعات مع الفرد، من أجل تنظيم حياتهم الاجتماعية وحل مشاكلهم اليومية، ومن ثم على الفرد أن يتعلم معاني وغايات الآخرين عن طريق اللغة وأساليب التنشئة الاجتماعية، وكيفية التصرف والتفكير وفهم الرموز ودلالاتها المشتركة لدى أعضاء المجتمع الواحد، بالاتصال والتفاعل ولعب الأدوار بفاعلية.

فالفرد لا يعد عنصرا فاعلا اجتماعيا إلا إذا تفاعل مع الآخرين وتضامن معهم في شكل جماعات متماسكة، والجماعات لا تظهر ولا تكون قوية وفاعلة، إلا بوجود الأفراد المتضامنين وانتمائهم للجماعة، وتفاعل العقول بعضها مع بعض الذي يتحقق في الوسط الجمعي (الحسن، 2015: ص 24).

وتشكل شبكة التواصل الاجتماعي دورا مهما في عملية التفاعل والتواصل بين الأفراد في مختلف بقاع العالم لتبادل الآراء والأفكار والمعلومات والعلوم المختلفة، وهذا التفاعل الافتراضي قد يحل محل التفاعل الاجتماعي بين أفراد الأسرة والأقارب والجيران على حساب التواصل الطبيعي، مما يسهم في أحداث نوع من الصراع بين الأجيال. (هيل، 2004: 102-103).

كما قد يؤدي تفاعل مستخدمي الإنترنت مع مضامينها، أو مع مستخدميها على مختلف ثقافتهم ومجالاتهم الاجتماعية إلى اكتساب معاني ورموز، وقيم، وعادات خاصة تجعلهم ضمن مجال اجتماعي متميز عن المجتمع الأصلي التقليدي ينتج نماذج متعددة للشخصية المحلية وخلق وعي جديد يسهم في تشكيل الهوية الثقافية.

التأثير الاجتماعي لوسائل التواصل الاجتماعي في التحول للمجتمع الافتراضي:-

في البداية كان الإنترنت وسيلة أو قناة للتواصل بين من يستطيعون الوصول إليها بسرعة، فتأثيرها لم يتجاوز فيما يبدو عملية التواصل، كالراديو تقريبا، فقد كان الوسيلة التي تنتقل بها المعلومات والمعارف بصورة سمعية شبه فورية، ولذلك شاع امتلاك أجهزة الراديو " أجهزة الاستقبال"، وبدأ الناس يستقبلون على أجهزتهم بثا يصف الحدث لحظة

وقوعه، كما سمعوا أصوات الآخرين من ساسة ومشاهير وصناع قرار وأخبار ومرشدين في كل المجالات، واستمعوا إلى آرائهم بصورة مباشرة وتفاعلوا معها .

إلا أن الإنترنت قد جعل بين مستخدمي لغة وثقافة خاصة بها، وتوسع في استخدام الصور والرسومات والبيانات لنقل المعلومات والمعارف عبر شبكاته وقنوات متعددة، وذلك إنما هو استمرار لما بدأه التلفزيون وأقراص الحاسوب، وإن كان الإنترنت أمراً جديداً للغاية لكثير من الناس، ويمكن أن نتوقع أن يؤدي إلى تغيير في البناء الاجتماعي ووظائفه، العلاقات الاجتماعية وأساليب التواصل الاجتماعي، مما قد يتسبب في تراجع استخدام القنوات الأخرى كالتلفاز وحتى الراديو. (هيل 2004 ص118)

لقد أصبح تداول وتبادل المعلومات بين الأفراد في غاية السرية والحرية بفضل المرونة المادية، والتقنية لهذه الوسائل، مدعومة برغبة الفرد في التحرر والسعي في تأسيس مؤسسات فردية في الاتصال وإدارة مختلفة للمشهد الاتصالي (الزرن، 2010: ص126)، ما قد ينبئ إن سلطة الفرد عبر وسائل التواصل الاجتماعي سوف تزداد يوماً بعد يوم خاصة في دول العالم الثالث في ظل تقلص السلطة التقليدية لوسائل الاتصال بهيكلتها وعدم وجود منظمات سلمية لها تأثير على معلومات شبكة "الإنترنت".

فهي غير خاضعة لأية رقابة من جهة رسمية، ولا توجد أية منظمة أو هيئة تدبرها أو جهة تملكها (الصرامي، 2006: ص6)، وهذه الخاصية أتاحت لمستخدمي وسائل الاتصال الاجتماعي فرصة حرية التعبير رغم وجود بعض الحواجز الأمنية التي قد تحد من حريةولوج إلى بعض المواقع خوفاً من القرصنة المعلوماتية.

فالحرية في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي تطرح إشكالية تتعلق بالسلبات والمشاكل المترتبة على التوظيف السيء لها؛ كانتشار المواقع التي تمس قيم وثوابت المجتمع المحلي، الدينية والاجتماعية، مثل الشك بين الأزواج، والعلاقات غير الشرعية، وظهور عمليات التطرف والنزاعات المذهبية والأيدولوجية، ونشر الأفكار الهدامة، وفقدان التفاعل الاجتماعي المباشر مع محيطه الاجتماعي، وظهور علاقات افتراضية لا تتسم بالمشاركة والتقارب المكاني.

استطاعت وسائل التواصل الاجتماعي أن تنشئ مجتمعات افتراضياً، تراجعت فيه قوة العلاقات الاجتماعية التقليدية بين الأفراد، وتقلص معاني بعض الأخلاق الاجتماعية، كالرفق والرحمة، والصبر والاحترام، والهدوء والتضحية، والحشمة، لمصلحة العلاقات

الافتراضية، مع تجاوز العوائق المكانية والاقتصادية واللغوية للتواصل، فهذا المجتمع يتشابه في أغلب الأحيان في كثير من سماته مع المجتمع الواقعي من ناحية التواصل الدائم عن بعد، دون عوائق ملموسة، وتحول حياة الفرد تدريجياً لتكون قائمة على التواصل الإلكتروني وتكوين الجماعة، أو الأسرة الافتراضية والعيش في الوسط الافتراضي، ضمن المجتمع الافتراضي في إطار خلق علاقات جديدة عابرة للحدود، تؤدي إلى ظهور مبادئ وقيم جديدة نتيجة للتداخل والتفاعل بين التقاليد والأعراف المحلية، ونظيراتها الغربية، أو الأجنبية، الأمر الذي قد يؤدي إلى "عولمة القيم والمبادئ التي يتعامل بها معظم البشر" (بن جريد، 2015: ص39-40) مرحلة الإنسانية عند أوجست كونت (تيماشيف، 1980: ص59)، مع وجود فئة تقاوم مثل هذا التوجه تتجه للتطرف في المقاومة.

بدأ المجتمع الافتراضي بمجموعات غير مترابطة في البداية تعيش في العالم الافتراضي، من الأفراد المهتمين بالقرصنة الإلكترونية "الهكر" للتواصل والتنافس في تطبيق مقابل الكترونية (القرم، 2004: ص205)، ثم تطورت مع الزمن لتنتهج قيماً معينة، ترتبط بالحرية الفردية، وتقوم بعمليات قرصنة دفاعاً عن مبادئهم، مثل هجومهم على وزارة العدل الأمريكية عام 2012 (هسي، 2001: ص205)، اعتراضاً على ما اتخذ من إجراءات قانونية على أشهر مواقع مشاركة وتحميل الأفلام والأغاني "يوتيوب"، كما قدمت المجموعة الدعم الإعلامي والفني لعدد من الثورات العربية، وحركة "وول استريت" من خلال اختراق مواقع حكومية، حيث قامت بهجمات إلكترونية دعماً للمؤسس : ويكيليكس " بعد صدور قرار باعتقاله. ولعل من البارز تأثيرهم في الشباب، حيث أن الحركات الثورية قد تبنت جزئياً شعارهم المميز جاي فوكس GUY FOUKES. (الجماسم، 2004: ص180)

فالمجتمع الافتراضي يتكون من مجموعة من الأفراد يتفاعلون ويتواصلون إلكترونياً باستمرار بأسمائهم أو بأسماء وهمية أحياناً، دون الارتباط بثقافة أو مجتمع أو أسرة أو نطاق جغرافي محدد، كما يمكن وصفه أنه عبارة عن شبكة اجتماعية لمجموعة من الأفراد، (سواء أكانت كبيرة، أو صغيرة وفق سهولة استخدام الموقع وقلة تكاليفه)، الذين يتفاعلون فيما بينهم باستخدام وسيلة ما، متجاوزين كل الحواجز الجغرافية والسياسية سعياً وراء الأهداف والاهتمامات المشتركة.

فهذا المجتمع يمكن أن يدخله الجميع بلا ميزة أو حكم مسبق، على أساس اللون، أو الجنس، أو العرق، أو محل الميلاد، أو مقدرة عسكرية، أو اقتصادية، وفيه لأي كان، وفي كل مكان أن يعبر عن رأيه، أو رأيها بلا خوف، أو مصادرة للرأي، وفي هذا العالم

الافتراضي تجد جل الأهواء والتجليات البشرية باختلاف أنواعها وإشكالها، فلا ملكية للكلام ولا يتسنى لأحد من أن يقتل أفكاره.

ومن ثم فإن جوهر وسائل التواصل الاجتماعي، هو العالم الافتراضي الذي يقع في ما وراء العالم الواقعي، فلا يمكن وصفه بالصواب أو الخطأ، ليس الافتراضي مقابلاً للواقعي أو نقيضاً له، وهو ما يناقض الفعلي، بمعنى أن الفعلي متحقق، بينما الافتراضي هو ما لم يتحقق بعد. ونجد أنفسنا في حركة دائمة من الترحال خارج حدود المكان والزمان واختراق المسافات.

فهذه الوسائل أحدثت تغييراً مهماً في عملية التفاعل الاجتماعي بين الشباب ومجتمعهم المحلي ومحيطهم الاجتماعي، كما تبينه دراسة- ساري على خضر- حيث تراجع مقدار تفاعلهم مع أسرهم بنسبة 65 ٪ وشكلت مصدراً للتذمر والشكوك في المنزل بنسبة 72.4 ٪ (ساري، 2004، ص299)، لعدم المشاركة في الأنشطة الاجتماعية ونقص التواصل مع الأقارب والجيران في المناسبات الاجتماعية.

ومن بين أهم تأثيرات وسائل الاتصال الاجتماعي ما أنصب على اللغة، باعتبارها أداة التواصل عبر هذه الوسائل، فبات الحديث عن لغة مشتركة دولية، تتشكل من التشابه الذي يتوالد بين الأجيال والذهنيات والثقافات، فيربط العقول والمدرجات وأدوات التغيير في تبؤات لها إسقاطاتها على الخصوصية اللغوية والثقافية، فتظهر لغة ورموزاً مشتركة تفرض نفسها على الناس، حيث إن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي الجديدة أفرز مصطلحات جديدة، مثل «اللايك»، «ريبوست»، «ريتويت»، «سيلفي»، «منشن»، «تويته» و«ريتويت» و«تاغ» و«فسبكة» و«بلوك» وغيرها، وهذه معظمها مصطلحات إنجليزية، والكثيرون باتوا يكتبونها على نطاق واسع بأحرف عربية فأصبحت دارجة في الحياة اليومية. (بن جريد، 2015، ص74)

ومثل هذه المصطلحات تبدو انعكاساتها على اللغات المحلية في صورة تراجع وتداعي كثير من الآداب والفلسفات الخاصة باللغات المحلية والشعوب، وإلى موت لغات بنسب متفاوتة في مواجهة اللغة الإنجليزية، واللغة العربية ليست بمنأى عن هذا الزحف الجارف للغة المعلوماتية، إضافة إلى التهديد القادم من انتشار اللهجة العامية الدارجة في الخطاب التواصلية.

ولوسائل التواصل الاجتماعي تأثيرات عدة منها: تعميق الفجوة الثقافية بين الأجيال،

وليس بين الأجيال الحالية فحسب، بل في المستقبل أيضاً، وستزداد طردياً؛ فكلما ازداد عدد مستخدمي أدوات التواصل الاجتماعي وقدراتهم وإمكانياتهم المعرفية، ازدادت الفجوة بين الجيل والذي بعده، الأمر الذي قد يؤدي دوراً في إحداث تغييرات في تكوين الهوية الوطنية، حيث أتاحت هذه الوسائل الحصول على المعلومات والتعبير عن الآراء والأفكار، مما قد يشكل عنصراً إضافياً لم يكن متاحاً في تكوين الشخصية، حيث أصبح المواطن يتذوق طعم الحرية الإلكترونية، التي قد تقود نحو البحث عن الحرية في الساحات والشوارع والمنتديات العامة.

فهذه المجموعات رغم أنها ذات اهتمام مشترك تتواصل ضمن مجتمعات الفضاء الإلكتروني، كما لو كانت مجتمعا محلياً؛ إلا أن ذلك لا يكفي لتوليد قيم المجتمع المحلي القائمة على الجاه والولاء والطاعة والاحترام والإحساس بالهوية الوطنية المشتركة والضوابط الاجتماعية - العرف والدين والعادات الاجتماعية والحكم والأمثال الشعبية - التي تحكم علاقات الأفراد؛ فمفهوم المجتمع الافتراضي يعمل في اتجاه معاكس لمفهوم سيادة المجتمع القائمة على حدود جغرافية، تسمح بمحاسبة من يلحق ضرراً أو خروجاً عن قوانين المجتمع وبنياته التقليدية.

وبالمقابل فإنها في مجال التعليم تشكل وسائل التواصل الاجتماعي، مصدراً مهماً في الحصول على المعلومات والأبحاث والكتب والدوريات في مختلف التخصصات، التي تساعد الباحثين في مختلف مراحل التعليم - من الروضة - حتى الجامعة، بمكتبات تحت تصرف المستخدم، أو بالتعليم داخل قاعات التدريب وخارجها بالاتصال عن بعد بين المعلم والطالب بالبريد الإلكتروني للحصول على البرامج التعليمية والتدريبية، وعمل المؤتمرات فيما بينهم عن بعد بتكلفة بسيطة قد تعادل تكلفة الهاتف المحلي، وعليه فهي وسيلة ذات أهمية في انتشار الثقافات من خلال التواصل بين الأفراد من مجتمعات ذات ثقافات وانتمايات متباينة (الصرامي، 2006، ص 60-61).

وتوجد توجهات يتوقع قيامها بتغيير نمط التعليم القائم بفعل تأثير وسائل التواصل الاجتماعي، ومن أهمها الدورات المفتوحة الشاملة عبر الإنترنت، وهي عبارة عن دورات واسعة النطاق تكون مفتوحة للجميع، تشرف عليها مجموعة من المؤسسات العلمية، مثل معهد "ماساشوستس للتكنولوجيا" (في أمريكا) الذي يقوم بتطوير هذه الدورات وتقييم الطلاب والحصول من خلاله على اعتراف علمي بالدورة، وهذا التوجه سيغير من مساقات العملية التعليمية مستقبلاً، إذ من الممكن أن يختار الطالب مواد من جامعات

مختلفة " وخلق "شهادته" الخاصة". (الفقي، 2001:ص85).

وأيضاً القنوات الإلكترونية الموجهة للمدرسين لتبادل الآراء والأفكار والتعرف على أحدث الأساليب وطرق التدريس والمواد والمناهج الجديدة وأساليب التقييم والقياس، وهي تعد نوعاً من أساليب "التأهيل الافتراضي" للمعلمين بطريقة غير مباشرة لتوسيع مداركهم وزيادة معارفهم، ومجالاً غير محدود للاستفادة من الخبرات، مما يدعم خبرتهم - الطلاب والمعلمين - على الابتكار والإبداع العلمي وتلقي المعلومة بأسلوب مشوق وجذاب. (تشين، 2014:ص164).

وإلى أنه ربما سيأتي الزمن الذي سيتندر فيه الناس على عصر الورق، والقلم والطباعة والسينما والصحف، والتلغراف والقنوات الفضائية، مع هذه القفزة الكبيرة التي حققتها وستحققها وسائل التواصل الاجتماعي في مختلف المجالات، في ظل السرعة "اللانهاية" وتصفير "صفر" الوقت والمسافة.

ويمكن القول: إن وسائل الاتصال الاجتماعي قد أسهمت في التمكين المعرفي للمرأة، وفي التواصل مع الناشطات نسائياً، والمنظمات النسائية والحقوقية في العالم، وداخل المجتمع الواحد، وتعزيز دور المرأة على إقامة علاقات اجتماعية خارج مجال المجتمع المحلي، وقد تم قبول النساء وليس البارزات منهن بوصفهن أنداداً مساويات للرجال على المستوى الاجتماعي والفكري، والحرص على تكوين مستقبل مهني أكثر من الميل للزواج المبكر، الأمر الذي أسهم في تحقيق أهداف رواد الدعوة إلى تحرير المرأة في المجتمعات العربية (أمين، ب:ص18).

كما أن لوسائل التواصل الاجتماعي تأثيراً مباشراً وغير مباشر في الأوساط الاجتماعية، أسهمت في تغيير بعض الأنماط التقليدية المتعارف عليها اجتماعياً، بعضها سيحدث بعد فترة زمنية تتوقف مدتها على مجموعة من المتغيرات من عمر المستخدم وجنسه، وطبيعته الشخصية وحالاته العقائدية والنفسية، وتتضمن ما يلي:

تقلص الترابط الأسري والاجتماعي: لقد سلبت وسائل التواصل الاجتماعي الأسرة لحظات الاجتماع الدافئة بين مكوناتها، فقد أصبح يتم التقارب بين المتفاعلين "الجماعة الافتراضية" وأبعد المتقاربين "الجماعة المحلية أو الأسرة مثلاً"، وذلك إن استخدام تقنيات الاتصال في المنازل يتزايد، ويتزايد معه الاتصال التفاعلي، لدرجة إن الاتصال الشفوي داخل المنزل على موائد الغذاء والعشاء في تناقص، وهناك من يفضل التواصل عبر

وسيط تقني على التحدث مع الآخرين وجها لوجه، نتيجة إدمان المستخدم لهذه الوسائل بعيدا عن دائرة التفاعل المباشر مع الأسرة والأصدقاء والأقارب، وممارسة مسؤولياته الاجتماعية تجاه الآخرين، الأمر الذي قد يؤدي إلى تغيير منظومة القيم الاجتماعية، وتراجع قيم المجتمع الأسرية، وتعزيز القيم الفردية، والشعور بالذات، والسمات الانفعالية للفرد، في ظل تنامي الرغبة في الوحدة والعزلة، خاصة بين فئة المراهقين والشباب، مما قد يؤدي إلى انفصال الفرد عن أسرته ومجتمعه المحلي، ويقلل من شعوره تجاه معاناة الآخرين، والحد من تكوين أية علاقات وصدقات مع أبناء محيطه الاجتماعي، ناهيك عن تراجع تأثير سلطة الآباء على الأبناء، وضعف إدراكهم لتوجيهات وطبائع الآباء مقابل تأثرهم بمفردات وقيم العائلة الافتراضية.

وقد توصلت الباحثة (منى عبد الستار) في دراستها عن البعد الاجتماعي للعولة وتأثيرها على الأسرة، إلى أن 60 ٪ من إجابات أفراد العينة يرون أن كثرة استخدام الهاتف المحمول المرتبط بالإنترنت من قبل أبنائهم، قلص فرص تفاعلهم داخل محيط العائلة - وجاءت نسبة الذكور والإناث متساوية - مما نجم عنه تراجع في مقدار التفاعل اليومي بينهم وبين أسرهم، وضعف تواصلهم مع أقاربهم في حضور مناسباتهم. (عبدالستار، 2013؛ ص490).

ذلك أن أول علامة قوة لشبكة التواصل الاجتماعي أن يجد الواحد منا "لا حول له ولا وقوة" أمام جبروتها وجاذبيتها، إذ يجد مستخدمها نفسه منساقاً وتابعاً لها، كلما زاد استخدامه لها كثرت روابطه الإلكترونية والافتراضية وقلت علاقته الاجتماعية بمحيطه الاجتماعي، فيجد الفرد نفسه محاصراً في عزلة قاتلة، أطلق عليها ماركس مصطلح (الاغتراب)، وهي الحالة التي يعيشها الإنسان المعاصر تجاه عالم الآلة. (البياتي، 2002؛ ص167).

وعليه فإنها تؤدي دورا مهما في تكريس العزلة التفاعلية التي هي من جهة تفاعل، ومن جهة أخرى لا يفيد هذا التفاعل الذي تمنحه وسائل التواصل -الإنترنت خاصة- في إخراج مستخدميه من عزلتهم، من أنهم متحررون من كثير من أشكال الإكراه والحدود والمراقبة، لكنهم بالمقابل محاصرون في زواياهم المنعزلة بافتقارهم حس الاتصال الفعال مع الآخرين، مع صعوبات في عقد علاقات اجتماعية مباشرة، فأصبح عندهم نوعا من الهوس المرضي بتعويض العزلة الاجتماعية التي يعيشونها بالاتصال بالمجتمعات الحديثة، لعقد عرى التواصل وتصبح علاقات سواء على شكل صداقات، أو اهتمامات، أو اتصالات اجتماعية، أو سياسية، أو بيئية، أو قواسم مهنية مشتركة، و من أجل تكوين رأي عام محلي، أو وطني، فهم مرتبطون دائما بخط الهاتف أو بالإنترنت لخلق فضاء أو ساحة عمومية افتراضية من

أجل تداول الرأي والمناقشة، فضلاً عن أن العزلة قد صنعت مجتمعات الاتصال المعاصرة من الأفراد ذوات معزولة، وأسهمت في تفكيك العلاقات الاجتماعية.

فقد أصبحت الأسرة مثلاً في أوقات اللقاء القليلة التي تجمع أفرادها حول مائدة واحدة، تتحول إلى حلقات للمساهمين في شركات تجارية وهمية مجهولة الهوية، أعضاؤها يتبادلون الألفاظ الجافة، والمواقف الحذرة، وحتى المظهر بلباسه وهندامه يغلب عليه طابع اللامبالاة إلى كل ما هو سلبي في جماعة بشرية عضوية، لم يبق لها من الأسرة إلا العنوان أو التسمية. (فكار، 1990: ص48).

ولهذا يمكن القول: إن وسائل التواصل الاجتماعي أصبحت تسهم في ظهور نمط جديد من العلاقات الكونية، نتيجة التواصل والتفاعل بين التقاليد والأعراف المحلية والأخرى الأجنبية، قد تؤدي إلى نوع من عوالة المعارف والقيم والعادات الإنسانية التي يتبعها أغلب البشر.

ويتجلى ذلك في عوالة الانتماء وتهديد الهوية، إذ يبدو واضحاً في قدرة هذه الوسائل على اختصار الزمن وإقصاء الجغرافيا، وبناء قاعدة علمية ومعرفية شاملة، غير خاضعة لسيطرة جهة معينة، أسهمت في إرهابات وبدائية للعوالة الثقافية، وخلق شخصيات نمطية تتشابه في أبعادها النفسية والاجتماعية والمعرفية، وظهور جيل جديد، يطلق عليه "جيل الإنترنت"، إذ أصبح البعيد متاحاً ومتناغماً فكرياً ومعرفياً، يمكن مشاهدته ومحاورته عن بعد، مؤثراً ومتأثراً، حتى غدت (صفة عن بعد)، ملتصقة بعدد من النشاطات والإعمال، كالدراسة عن بعد، والعمل عن بعد، والحرب عن بعد، فأصبح الاتجاه نحو تقليل حركة الأفراد وتعويضها بالاتصالات والتفاعل عن بعد. (معزوز، 2011: ص102-103).

ففي دراسة "رولا الحمصي" بعنوان إدمان الإنترنت"، بينت أن 60 ٪ من أفراد العينة أكدوا أن استخدامهم لوسائل الاتصال الاجتماعي أدى إلى نقص تواصلهم الاجتماعي، ومشاركتهم في الأنشطة والممارسات الاجتماعية (بن جريد، 2015: ص27)، وأصبح الفرد مُرتبهاً لوسائل التواصل الاجتماعي بصفة عامة وللإنترنت بصفة خاصة، أما (صالح أبو أصبح) في دراسته لتأثير الإنترنت في العلاقات الأسرية، يرى أن لوسائل الاتصال تأثيراً واضحاً على العلاقات الأسرية، فعلاقات الشباب بأخوتهم وجيرانهم فيها نوع من التباعد رغم التجاور المكاني، بينما كان اتصالهم مع من هم خارج البلاد أوثق. (أبوصبح، 2004: ص170).

يوافق ذلك ما توصلت إليه دراسة "نجاة عباد"، حول مجتمع الإنترنت في ليبيا، إن 65 % من أفراد العينة يشعرون بعدم تواجدهم ضمن نطاق العائلة والالتفاف حول المائدة أو المشاركة في عمل جماعي يوفر حياة أفضل للأسرة، ناهيك عن ضعف العلاقات مع الوالدين والجيران والأقارب، مع تأثر الواجبات الزوجية بالإهمال، وعدم توفير الحاجات الضرورية للأسرة، بل يتعدى ذلك ظهور بعض حالات الزواج التي تتم خارج الأسرة عن طريق شبكة التواصل الاجتماعي، وعدم الخجل أو الحشمة في الكلام الذي لا يجب التحدث به في وجود الوالدين وبعض كبار السن من أفراد العائلة (عباد، 2008: ص12)، وحول ذلك يذكر (حلمي خضر) في دراسته حول تأثير الاتصال عبر الإنترنت في العلاقات الاجتماعية، أن 38,6 % من أفراد العينة قد تحدوا آليات الضبط الاجتماعي، وقاموا بلقاءات مباشرة عبر الإنترنت بمن تعرفوا عليهم غير أبهين بالعواقب المترتبة على هذه العلاقات المحظورة اجتماعياً. (حلمي 2005 ص299).

وفي ذات الوقت إذا ما استخدمت وسائل الاتصال بشكل جيد، تصبح أسلوباً جديداً لتحقيق المزيد من صلة الرحم والتفاعل الاجتماعي بين الأقارب، عن طريق الكتابة والصورة والمحادثة لتحل محل العلاقات الاجتماعية المباشرة.

كما تعمل هذه الوسائل على كسر عزلة كبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة؛ ذلك أن الظروف التي يعيشها بعض هذه الفئات الاجتماعية من أفراد الأسرة، تسمح لهم بوقت كاف، يمكنهم التعامل مع وسائل التواصل الاجتماعي، دون تعب أو مشقة أو إرهاق جسدي، إذ يحصلون على حس مماثل من التمكين الاجتماعي بواسطة وسائل التواصل وإنشاء صلات مع زمر افتراضية، مما يكسر العزلة التي يعيشونها وتهيئ لهم امتداداً اجتماعياً افتراضياً، مع أقرانه وأقاربه وأسرته، ومع جماعات من مناطق أخرى؛ مما يضيف له بعداً زمنياً ومعارف متنوعة جديدة.

فكبار السن وبعض من ذوي الاحتياجات الخاصة يجلسون في أماكنهم لمدة طويلة، وذلك عندما تتوفر لهم وسيلة التواصل الاجتماعي "الإنترنت مثلاً" تمكنهم من الاستفادة من خدماته في التواصل مع مستخدمي هذه الوسائل، مما قد يساعدهم على بناء شبكة من العلاقات والمعارف والأصدقاء الجدد، يكسر عزلتهم الاجتماعية، ويبعد عنهم شبح الكآبة والانطوائية وإثارة القلق في المنزل، بل يكون ذلك حافزاً على تعلم معارف، ومهارات جديدة، والإطلاع على ثقافات متنوعة، تضيف إلى عمره زمنياً ثقافياً، مما قد يقيه من بعض الأمراض النفسية كالوحدة وفقدان الذاكرة والارتعاش وتحريك الأصابع.

وتعد وسائل التواصل الاجتماعي - خاصة الفيس بوك - منبرا لمن لا منبر له وساحة مهمة للتعبير عن الأفكار والخواطر والأحلام المستقبلية، والتعرف على المستجدات، مما يجعلها مسؤولة عن صياغة عقول الشباب والمراهقين، وانتشار العقول الافتراضية، وبالتالي ستطغى "الثقافة الافتراضية" بكل سلبياتها وإيجابياتها على تفكير الشباب من مستخدمي هذه الوسائل، فقد تغيرت أنظمة المعرفة وأنظمة الاتصال رأسا على عقب، فأمكن الاستعاضة عن الكتاب الورقي بالكتاب الرقمي، وعن المكتبة الورقية بالمكتبة الرقمية "الافتراضية" ومن ثم سيصعب التكهّن بتصرفات الشباب وردود أفعالهم تجاه قضايا مجتمعهم المحلي، وتراجع وتيرة التفكير الإبداعي، وظهور حالة من الإبداع الافتراضي المعتمد على برامج التكنولوجيا وتطبيقاتها، الأمر الذي قد يؤذن بحدوث ثورة اجتماعية لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية سمحت بانتقال المعلومة بسرعة الضوء وبأحدث شبكات الاتصال.

وتبرز معظم الدراسات المذكورة بهذا البحث أن الأفراد يعتمدون في حياتهم اليومية على وسيلتين هما، الفيسبوك للتواصل مع الآخرين، وموقع جوجل googol للمعرفة والمعلومات، وتشير أحدث الإحصائيات الخاصة بعدد مستخدمي مواقع لتواصل الاجتماعي - الفيسبوك - إلى أن عددهم في الوطن العربي قد بلغ 46.4 مليون مستخدم تقريبا سنة 2013، وأنه يعد وسيلة التواصل الأولى في الوطن العربي بنسبة 87 % يليه واتس أب بنسبة 84 %، (هسي 2001 ص199)، ولكن ما هي الخصائص أو الدوافع التي جعلت الإقبال على هذه الوسيلة التفاعلية؟ وللإجابة عن هذا السؤال يمكن رصد الدوافع الآتية:

- بناء علاقات وصداقات جديدة، ذات خصوصية.
- من أجل شغل أوقات الفراغ، في الترفيه والاسترخاء والتسلية، بما فيه من فكاهة وأخبار وطرائف وكتابات وصور ومناظر طبيعية وتاريخية وتعليقات وألعاب حيث إنه أصبح يشكل نوعا من السياحة ألا وهي السياحة الافتراضية.
- الحصول على المعلومات والبيانات والمعارف والترجمات اللغوية والأفكار والآراء حول ما يدور في حياتهم اليومية .
- الهروب من الواقع المعيش بما يفرضه من تعقيدات وإحباط وعزله.
- من أجل التسويق للسلع والخدمات.
- وسيلة إخبارية تفاعلية سريعة ومريحة لمعرفة أخبار التلفزيون أو الصحافة أو الإذاعة.

- من أجل مُجَاراة الموضة، وولوج عالم التقنية الذكية .
 - من أجل التطوير الذاتي المهني والعلمي .
 - من أجل الدعاية والإعلان في كافة المجالات والتعرف على كل ما هو جديد .
 - ومن خصائص الفيسبوك أيضا أنه يحيط أفراد الجماعة الافتراضية، علما بأنه عندما يغير أحدهم صورته الشخصية، أو صورته المفضلة- الوهمية-، التي أختارها أن تحل محل صورته الشخصية، وهذه خدمة لا توفرها الحياة اليومية (المجتمع الواقعي) فكثير ممن يتلونون ويغيرون وجوههم لا يخطرون غيرهم .
- كما أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي عاملا مساعدا في تباعد الفجوة الثقافية بين الأجيال، فيما يتعلق بثقافة الحوسبة، وتقنيات التواصل مع العالم الخارجي إلكترونياً، مقابل كثير من الناس الذين لا يتمتعون بمعرفة ومهارات استخدام هذه الوسائل، فهم عرضة للاتهام بالتخلف الثقافي والأمية التقنية، الأمر الذي قد يسهم في تطوير نموذج من الصراع الاجتماعي والثقافي بين شرائح المجتمع بين الكبار والشباب، وبين الأكثر معرفة والأقل معرفة بهذه الوسائل، مما ضاعف من ظاهرة صراع الأجيال، إضافة إلى حدوث طفرات وقفزات معلوماتية يكتسبها الأبناء لا يستطيع الآباء اللحاق بها. (بن جريد، 2015: ص39).
- كما ارتبط اقتناء واستخدام الهواتف المحمولة الذكية والإنترنت يختلف باختلاف الإطار الاجتماعي والاقتصادي وبمراحل النمو والتنمية الاجتماعية والتحديث، فالهاتف المحمول يستخدم في العالم المتقدم مثلاً غير ما يتم استخدامه في عالمنا، ففي البلدان المتقدمة يستخدم للضرورة العلمية والعملية القصوى، ولكن لدينا يستخدم للمباهاة والأبهة والتفاخر، من حيث الشكل واللون والنوعية والبرمجيات، دون الاستخدام الرشيد، وهذا يرجع إلى امتداد ثقافة الهاتف المحمول، الذي مازال يصور لنا شكلاً من أنماط الاستهلاك الترفي على أنها مصدراً للقيم الإنسانية والتكامل الشخصي، ومظهراً اجتماعياً يكسبهم المعاني والرموز الاجتماعية المرتبطة بالوضع الاجتماعي المتميز، مما جعله -أي المحمول- يشكل صراعاً اجتماعياً بين أنصار الشركات المصنعة، مع إعلاء قيم الإنفاق والأنانية، على حساب قيم التضامن الاجتماعي والمصلحة العامة، وقد اخترقت هذه الوسائل مختلف شرائح المجتمع بكل أعمارهم، نظراً لعدم توافر المعلومات الكافية في المجتمع حول أية قضية ما، فكان التوجه نحو هذه الوسائل متنفساً للجميع، إضافة إلى سهولة الوصول إليها، والحصول عليها، كما أن وجود وقت فراغ كبير لدى الأشخاص

وعدم وضوح الرؤية والهدف في حياتهم، يجعلهم يتوجهون إلى هذه الوسائل، وقلما نجد شخصاً مشغولاً يقضي وقته على وسائل التواصل الاجتماعي.

وتظهر انعكاساتها على الأطفال والمراهقين فيما تعرضه من مواد ومعلومات خيالية، وغير واقعية، بانسيابية واستمتاع، مما قد تعيق تفكيرهم وتكيفهم مع قيم مجتمعهم، وتُمنّي لديهم بعض الأفكار غير العقلانية خاصة ما يتعلق منها بنمط العلاقات الشخصية، وأنماط الحياة والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع المحلي، حيث أن إبحار الفرد من ثقافة إلى أخرى عبر الفضاء الإلكتروني يجعله يتناسى المسلمات والثوابت الاجتماعية لمجتمعه الحقيقي، فينطلق من المطلق في الحياة العامة إلى النسبي في الحياة الافتراضية، مما يقلل من فرص التفاعل والنمو الاجتماعي، بتكوين علاقات ذات طابع مختلف مع أشخاص مجهولي الهوية بواسطة أجهزة تفتقر دماء المشاعر الحقيقية، التي يرى الإنسان العادي انعكاساتها على كل من يتعامل مع هذه الشرائح، فقد أكدت إحدى الدراسات ارتفاع نسبة مشاركة الشباب في جماعات الدردشة بنسبة 74.2 % ، الأمر الذي أدى إلى عزلة بعضهم، والعزوف عن العلاقات الاجتماعية وعدم القدرة على التكيف مع محيطهم الواقعي. (محمود، 2005: ص152)، بينما توصلت الباحثة منى عبد الستار في دراستها عن البعد الاجتماعي للعملة وتأثيرها على الأسرة إلى أن 60 % من إجابات أفراد العينة أكدوا أن أبنائهم يتأثرون بما يعرض عليهم من أفلام (الأكشن واليوتيوب) التي تثير العنف والخشونة، إذ يقومون بتمثيل ومحاكاة وتطبيق الحركات التي يشاهدونها بخشونة وعنف على أخوتهم الأصغر منهم، وحتى مع الأم أحياناً. (عبدالستار، 2013: ص460).

في الوقت الذي كانت فيه العلاقات الاجتماعية تأخذ بُعداً رأسياً لا يتجاوز نطاق أسرة الفرد الأبوية، أو جماعته المحلية، وتتصف هذه العلاقات بقوة الالتزام الاجتماعي التقليدي وفق ضوابط قيمة تحددها ممارسات سلوكية منظمة، تعمل الجماعة على تلقينها وترديدها عبر الأجيال ، دون أن يدرك الشاب، أو يكون وجهة نظر خاصة حول طبيعة البيئة المحيطة به، أو على أي مذهب سياسي أو ديني قضى عمره.

أما في المجتمع الافتراضي فإن العلاقات أصبحت تتنوع أفقياً، وذات أهداف محددة، تقوم على تبادل المنفعة، مع ضعف الالتزام. وعدم الإذعان لقيود وضوابط العرف الاجتماعي، وخبرة كبار السن من ذوى السلطة في الأسرة ، وبروز ظاهرة القبلية نحو إعادة تشكيل اتجاهات وقناعات جديدة، مما قد يترتب عليها صراع المصالح بين الأجيال، الناشئ عن توترات وتناقضات التمسك بالقديم، وبين محاولات الانطلاق والمعاصرة، فقد

كان ما يتحدث به الكبار، لا يجوز مطلقاً أن يتحدث به الصغار، وما تتحدث به النساء لا يتحدث به الرجال، وعندما كانت الأخبار تحتاج إلى أيام وربما لسنوات كي تصل من مكان إلى آخر، كان شيخ القبيلة، وكبار السن هم المصدر الأساسي للمعلومة التي يجب الوثوق بها، رغم شُح البدائل المعرفية وثباتها وجبريتها، وتقتصر على ما يجب معرفته، إلا على ما ترغب في معرفته وكل شيء ممنوع ما لم يصرح به.

كما لا يمكن أن ننكر حقيقة مهمة مؤداها إن وسائل التواصل الاجتماعي عموماً والإنترنت خاصةً قد أسهمت في بلورة نزعة المساواة في المجتمعات المعاصرة، وفي ظهور ما يمكن تسميته "الديمقراطية التفاعلية" التي تعتمد على الطرق السيارة للمعلومات من أجل إشاعة الحس السياسي بين جماهير ورواد ومستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي - كالإنترنت - بالمشاركة في الحياة السياسية. فهذه الوسائل تسمح لأكثر عدد من الأفراد بالمشاركة في استطلاعات الرأي العام، والانتخابات على الشبكة، بمن فيهم ذوي الاحتياجات الخاصة والذين يسكنون مناطق نائية، بطريقة فورية وعاجلة على أية قضية وفي أي وقت، مما يُرسى دعائم ما يمكن تسميته بالديمقراطية الافتراضية المتداولة في العالم الرقمي، التي أفرزت أشكالاً نضالية جديدة، تتعدى المؤسسات الحزبية التقليدية وتتجاوزها، وذلك مثلما حدث في بعض البلدان العربية اليوم، حيث أثبتت هذه الوسائل قوتها - الفيس بوك مثلاً - في تنظيم الاعتصامات والاحتجاجات في الميادين العامة، وإثارة الرأي العام، مما عُد تحدياً للأجهزة الأمنية الحكومية القمعية. (هسي، 2001؛ ص 189-207)

فالعلاقات السياسية التي كانت تقررها الدول بكامل إرادتها في إطار ممارستها لسيادتها على شعوبها وبلدانها، أصبحت اليوم بفضل التقدم الهائل لثورة المعلومات وتكنولوجيا وسائل الاتصال تتخطى كل الحدود وتحطم كل القيود لتفرض نفسها على كل المستويات المهمة الحساسة بعيداً عن أية مراقبة من أي نوع، إذ لم يكن من السهل التحكم فيها بالإجراءات التقليدية كإغلاق الحدود وقطع العلاقات الدبلوماسية مثلاً. فالعلاقات الدولية اليوم لم تعد تقتصر فقط كما عليه الحال من قبل على العلاقات التجارية (استيراد وتصدير).

وعلى ضوء ذلك قد نشهد تراجع أدوار المجتمع السياسي، وتنامي أدوار المجتمع المدني والجماعات الافتراضية من خلال ثورات دول (الربيع العربي) مع اتساع أنساق الفعل السياسي نحو تعدد الفضاءات وإلغاء الزمن وإخفاء الهوية، والهوية المجهولة، فظهر العديد من العلاقات خارج نطاق السيطرة من داخل المنتديات وغرف الدردشة واستوديوهات التلفزة عبر الأقمار الصناعية، إذ لا توجد سلطة مركزية أو قيادة توجه

الحديث، فكل فرد يستطيع أن يكون مركزا للجماعة في أحيان كثيرة، وبالتالي يمكن أن يكون للجماعة الافتراضية أكثر من مركز في موضوع الاهتمام الواحد.

وفي إطار حرية الاتصالات أسهمت وسائل التواصل الاجتماعي في تكوين جماعات الضغط السياسي وتشكيل الأحزاب وتحديد مناطق شعبيتها ومكامن قوة تأثيرها وفلسفة رؤيتها ومنهج عملها، في الحكم وإدارة الاقتصاد، إضافة إلى إسهامها في تطوير نوع من المشاركة السلبية للجماهير ككتفائها بصب اللعنات على السلطة، وإطلاق الإشاعات والاتصال عبر الهاتف لتفريغ شحنات الغضب والاحتجاج، وهكذا انتقلت السياسة إلى الفضاءات الافتراضية ليصبح الحديث عن قوى حزبية افتراضية ناشئة وأخرى سياسية صاعدة مجهولة الهوية، تقتحم تنظيمات المجتمع المدني من جمعيات وجماعات افتراضية بأسماء مستعارة، وذلك لغياب برامجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعدم القدرة في التأثير على عموم الناس واستقطابهم للانضمام إليه .

وتجري الآن دراسات حول الانتخابات وأساليب الاقتراع - التصويت - الإلكتروني ومسوح الرأي العام عبر الإنترنت فإذا أضيف إلى ذلك عمليات الحوار والاتصال عبر الإنترنت وشبكات الاتصال فإن الديمقراطية في العالم تدخل في مرحلة جديدة قائمة على الانتشار ومزيد من الرسوخ والتغلغل في حياة الناس وقراراتهم (هيل، 2004: ص14).

وتكمن خطورة الحرية في استخدامات هذه الوسائل عندما توجه في إذكاء العداوات والصراعات الاجتماعية والحزبية والحروب الأهلية، وبث الإشاعات والإخبار المزيفة، واستهداف الشخصيات الوطنية بالذم والقذف دون معرفة، وذلك من خلال المتخفين بأسماء وهمية، فهي كما نعلم إذا أعطي الإنسان السلاح وأمن العقوبة، فإنه لا يتورع في أعمال القتل والإجرام فيمن يراه خصما، هذا بالضبط ما يحصل في فضاء التواصل الاجتماعي، ولكن على مستوى الكلمات وقد يكون هذا أخطر.

إلا أن الديمقراطية بهذا المنظور قد تتحول إلى شعبية سياسية وإلى خطاب سياسي تبسيطي في صورة شعارات فضفاضة يتوود إلى الغرائز والعواطف، ولا يخاطب العقل، بنشر ثقافة تبسيطية هشة؛ تؤدي بالديمقراطية إلى شكل من أشكال الفوضوية بدل من تكوين ثقافة سياسية رصينة لمواطنة جديدة ملائمة للعالم الافتراضي.

ويمكن القول: إن الأثر الرئيسي لوسائل الاتصال الاجتماعي يتمثل في زيادة إيقاع الحياة حيث تغيرت بعض الأنماط التقليدية المتعارف عليها، بما يسمح بتقديم التهاني والمواساة

والدعوات والمعلومات والصور العابرة لمحيط الأسرة والمجال المكاني، مما سيضعف الحاجة للقيام بالواجبات الاجتماعية في المستقبل، ويزيد من احتمالية الاعتماد على إلكترونية العلاقات الاجتماعية، قد تتحول الأسرة إلى مجرد ذكرى يكون بطلها مواقع الدردشة وعلاقات وهمية عبر المجتمع الافتراضي تختفي فيه المؤثرات الشعورية والعاطفية حتى بين الزوجين مما يهدد كيان الأسرة ووظيفتها الاجتماعية، بتشكيل كيانات اجتماعية من نوع جديد، يربطها العالم الافتراضي، ومن ثم ينتقل الفرد من الجماعة الأولية، الأسرة -العشيرة -القبيلة - إلى مجتمع من نوع جديد يتسم بتقاليده وروابطه السهلة - العصبية الافتراضية - التي تعد عماد قوة وسائل التواصل الاجتماعي نحو تطوير منظومة اجتماعية جديدة، والمضي نحو تشكيل مجتمع افتراضي له مفرداته ولغته وثقافته. (هيل، 2004: ص118).

لقد نتج عن تطوّر المجتمعات الافتراضية حالات متفاوتة من الانقطاع عن العالم الواقعي وانهايار العلاقات الاجتماعية لم يعد الناس يتزاوون كما كانوا يفعلون من قبل فقد أغنتهم الرسائل النصية القصيرة ورسائل البريد الإلكتروني والبطاقات الإلكترونية وما يكتبون ويتبادلون على الفيسبوك والواتس أب، والفايبر.. عن التزاور والمعايide. من هنا لم تعد صورة الأسرة التي تعيش في بيت واحد، فكل فرد من أفرادها في عالمه الافتراضي الخاص، لم تعد هذه الصورة مجرد رسم كاريكاتيري، بل حقيقة مقلقة تحتاج مزيداً من الانتباه والاهتمام.

وفي إطار هذا المجتمع يعيش مستخدم وسائل التواصل الاجتماعي في عالم متعدد الثقافات واللغات والعقائد والمذاهب والأفكار والأجناس، مما يجعله يتعايش مع هذا العالم الافتراضي بكل أحاسيسه، منفصلاً عن واقعه المعيش، بعبارة أخرى إذ يجد في العالم الافتراضي ما يشبع حاجاته من الأصدقاء والاحبة والأفلام والأغاني والترفيه والألعاب، وفيه يستطيع أن يتوقف متى شاء أو يستمر حين يشاء، وفي ذلك لا يتحمل أية أعباء مادية أو نفسية جراء استخدامه وسائل التواصل الاجتماعي بخلاف الواقع الحقيقي الذي قد يسبب له مشاكل اجتماعية ومادية في كثير من الأحيان، فقد باتت هذه الوسائل جزءاً لا يجزأ من حياة الإنسان - الفرد - اليومية فإحدى الدراسات قدرت أن الفرد العادي ينظر إلى هاتفه الذكي أكثر من مئة مرة في اليوم، (الجاسم 2004 ص275)، وهذا مؤشر إلى الحالة التي يعيشها الفرد على تلك الوسائل، فهي شريك دائم في حلهم وترحلاهم لما توفره من إشباع لرغباتهم، وحبا للتعرف على آخر المستجدات، وفي المقابل أن معظم هذه الأنشطة فيها نوع من ضياع للوقت والجهد والمال، وخروج على الواقع الاجتماعي.

وعلى أية حال فإن ثورة الاتصالات قد وضعتنا أمام مجتمع جديد قوامه رأسمالية معلوماتية، وثقافة افتراضية، ومجال اجتماعي افتراضي ذا ثقافة مهيمنة، لها القدرة على تكوين عقلية الفرد وإخضاعه لقيمتها وتضليله على أعماق المستويات، كما أنها أسهمت في هدم أو تراجع بعض العلاقات الاجتماعية القبلية والطبقية والتراتبية الإدارية، التي كانت سائدة قبل ولوج هذه الوسائل .

ولذا تتجه بعض المجتمعات المعاصرة حالياً إلى الابتعاد عن الطرق التقليدية في التعلم، والتكيف مع التغيرات التي أحدثتها تقنية المعلومات وثورة والاتصالات التي تحتاج بصورة رئيسية إلى تعليم عام، وتعليم عال متطور، يسهم في بناء الإبداع والابتكار والتثقيف الذاتي، مما يصنع نمواً متزايداً في قوة العمل التي تمتلك المعلومة، والمعرفة وتستطيع التعامل معها بيسر وسهولة ، مع تحول هيئات ومؤسسات ومنظمات المجتمع المدني الخاصة والحكومية إلى هيئات ومنظمات ذكية ليتمكن أفراد المجتمع من إنتاج المعرفة، ونشرها، وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي. (غريب، 2009: ص383-386).

ويواجه بعض مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي - لساعات طويلة - لحالة من الإدمان ونوعاً من العصف الذهني والتراكم المعرفي والزمني مما يؤثر في ضعف درجة انفعاله ومناعته الإيجابية الذاتية تجاه ظواهر معينة تمس وطنيته أو معتقده ، نتيجة تعرضه وتعوده سماع ومشاهدة محتويات وسائل التواصل الاجتماعي من أقوال وأفلام - كأفلام الكاوبوي ومسلسل وادي الذئاب - ومقاطع فيديو، التي تسرد برامج عن العنف والقتل والمخدرات، والخيانة والجنس، وتقمص شخصيات وهمية، بلغة تخل بالقيم والأعراف والعادات، التي قد تجعل الفرد يصاب بالتبدل واللامبالاة، فلا يزعج عند مشاهدة مناظر الدماء والقتل وأحياناً يصبو إلى التقليد الأعمى في ممارسة هذه الأفعال، وقد يتحول إلى مجرم دون أن يتأثر أو يتقيد بمبادئ أو تربية، أو أية ضوابط اجتماعية، الأمر الذي يؤدي به في النهاية إلى اضطرابات في السلوك كالفتور العاطفي والجفاء في الواقع - اغتراب - قلق - انطواء - ثم انتحار - وقد لا يستجيب لمتطلبات الأسرة، وبناء أسرة، وفقدان مهارات عديدة مثل العزوف عن القراءة وقلة التفاعل الاجتماعي والنوم والحركة، وعدم الاندماج والتكيف مع الآخرين، ومع هذا يزداد ارتباطه بوسائل الاتصال الاجتماعي عسى أن يصل إلى الإشباع العاطفي وهذا صعب التحقيق في الفضاء الافتراضي (عزب، 1990: ص76)، فيلجأ إلى ارتكاب بعض الممارسات أو تقليدها كاختراق البريد الإلكتروني وتعاطي المخدرات وتسهيل تداولها أو التشهير بالآخرين والسرقعة، والتعرض للآخرين في الأسواق

والطرق والبنوك، فلم يعد هناك نوع من الأمان الاجتماعي الذي يجعل الفرد في الوقت الحاضر أن يأخذ سيارته ويتجول عبر الزمان والمكان في مدينته، أو يترك باب بيته مفتوحاً، كما لم يعد في مقدور سيدة أن تتجول وهي تحمل حقيبة مميزة دون أن تتعرض للمضايقة أو الابتزاز كما يبدو أن الشعور بالعيوب والخجل والحشمة في طريقها للزوال حتى عندما يدان الشخص ويجرم.

فمستقبلاً سوف تقفز الجرائم الإلكترونية إلى صدارة التهديد الأمني، وهي جرائم لها ارتباط وثيق بوسائل التواصل الاجتماعي. فهي تأخذ شكل رسائل الكترونية غير مرغوب فيها، مع تنامي إنتاج البرمجيات الفيروسية "الخبیثة" التي بات إنتاجها يفوق إنتاج البرمجيات الشرعية، بهدف تنفيذ هجمات على مواقع المؤسسات الكبرى وأنشطة القرصنة على البنوك والمواقع العسكرية والاستخباراتية.

وفيما يخص التأثير الزمني فإن مستخدم وسائل الاتصال الاجتماعي يزداد تفاعله مع الوسيلة، كلما زاد استخدامه لها، فقد أوجدت الصحافة زمن القراءة ثم أضافت الإذاعة زمن الاستماع فقللت من زمن القراءة، ثم التلفاز أضاف زمن المشاهدة وقلل بعض الشيء من الزمن السابقين، ثم الحاسوب وشبكات المعلومات فأضافت زمن التصفح، أما وسائل التواصل الاجتماعي فقد أضافت زمناً نهائياً مرئياً ومقروءاً ومسموعاً لدرجة أن الإنسان الفرد يستثقل أن يمر على والديه للاطمئنان عليهما، أو يتنزه مع أبنائه أو يجلس مع أصدقائه الحقيقيين، زد عن إخفاقه في أداء واجباته الدينية والاجتماعية والأسرية في كثير من الأحيان.

أخيراً يضاف إلى ما سبق ذكره من تداعيات وسائل الاتصال الحديثة ظهور "الطلاق العاطفي" أو ما يسمى حديثاً بمصطلح "أرامل الانترنت" وهو مصطلح حديث وغريب أيضاً عند سماعه أول الأمر، فكيف للمرأة أن تكون أرملة بفعل الإنترنت، فمصطلح الترملة عند عامة الناس هو كل من توفي زوجها تصبح أرملة تعيش أسيرة الحفاظ على ذكرى الزوج وحماية الأبناء، وصون صورتها، من أحكام مجتمع يفترس شرف الأرملة، مجتمع لم يتخلص بعد من رواسبه التقليدية والنظرة الدونية في تقييم الأشخاص.

ففي عصر تقنية المعلومات يطلق مصطلح الترملة على النساء اللاتي توفي أزواجهن عاطفياً ونفسياً وجسدياً في حياتهن بهجرهن، بسبب إدمانهم استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، نتيجة ما يعانيه أحد الأزواج من غياب الشريك وعدم قيامه بدور حقيقي في حياة الأسرة، والعلاقة الزوجية، فيلجأ إلى إقامة علاقات حميمية افتراضية عبر شبكة

التواصل الاجتماعي لا يترتب عليها التزامات، أو اتهامات أمام المجتمع. حيث يجد فيها بعض الرجال متنفساً للهروب من الروتين اليومي، والمشاكل البينية التي تؤدي إلى الملل في العلاقات الزوجية، وهذا النمط من العلاقات ينعكس في كثير من الأحيان بشكل سلبي على بناء الأسرة، إما بالشتائم والإهانات أو الانفصال العاطفي رغم وجود الزوجين تحت سقف واحد، وأحياناً قد تصل في بعض الحالات إلى ضرب الزوجة والأبناء كوسيلة للتفريغ النفسي.

ومن ثم يصبح البناء الأسري عبارة عن مسلسل من الشقاق والمشاحنات والحسابات، لا سُكُوناً ولا مُودة ولا رحمة وتتحول الأسرة إلى مؤسسة نفعية طابعها النفور والحذر والتعاطف المغشوش، والعلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة كزميل وزميله حلت محل التوادد الأسري في وضع مغلوط. (فكار، 1990: ص49).

وعليه فإن المرأة وكذلك الرجل في المجتمع الافتراضي، لا يتعاملان كأعضاء في مؤسسة الزواج. وإنما يتعاملان في شكل إطار عائلي مؤقت أو دائم، يحافظ من خلاله على المظهر العام للعلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة باختيار الألفاظ المهذبة، والعبارات المنمقة، وتبني مشاعر التودد، مما يخلق مع الوقت جواً مناسباً لقيام ترابط قد يتبعه الالتباس، وتتحكم فيه الخلفيات المفسرة بين الذكر والأنثى في غيبة الوعي بحقيقة العمل الاجتماعي وهدفه، فيتهز البناء الاجتماعي نتيجة لاهتزاز البناء الأسري، فكل ما يجري داخل الأسرة وخارجها يساعد على تدميرها باسم التحرر اللاموضوعي في إطار المجتمع الافتراضي، وذلك لما يتوفر على شبكة الإنترنت من سراديب وأركان لا حصر لها لرغبي الذات الوهمية التي يمكن أن تتحول إلى علاقات واقعية. لا تقتصر مخاطر هذه الممارسات عن الخروج على الأخلاق بل تتجاوز ذلك إلى تدمير الأسر ورفع معدلات الطلاق والهجر في حال أدمن الأزواج أو الزوجات قضاء أوقاتهم في الجري وراء هذه الأوهام، ويمكن القول إذا كان للأرامل في الواقع الاجتماعي حقوق اجتماعية وقانونية، فربما يكون لأرامل وسائل التواصل الاجتماعي حقوق اجتماعية وقانونية في المستقبل ومحاكم شرعية - للأرملة الافتراضية - وقد يكون ضمن شروط عقد الزواج في المستقبل وضع قيوداً على وسائل الاتصال الاجتماعي من أحد الزوجين، وضمان تقاسم المسؤوليات الأسرية والاجتماعية في استخدام وسائل الاتصال الاجتماعي.

لقد حاولنا المقارنة بين المجتمعات الافتراضية والمجتمعات الواقعية في كل جزء من أجزاء هذه الموضوع استناداً إلى بعض أفكار مؤسسي علم الاجتماع بتقسيم المجتمعات

إلى صنفين، هما بتعبير إميل دوركايم Durkheim مجتمع التضامن الآلي mechanical ومجتمع التضامن العضوي organic، وبتعبير هربرت سبنسر المجتمعات البسيطة، والمجتمعات المعقدة، وبتعبير ويليامسون Williamson البنى أو التراكيب الهرمية hierarchies والأسواق markets. الصنف الأول يتسم بالثبات والترتيب الهرمي الذي يستند إلى الطبقة والمكانة الاجتماعية وما إليها. أمّا الثاني فيُتّصف بالمرونة والتغيّر (البياتي، 2002: ص78-95). أما الصنف الثاني يتسم بما يسمى بالارتباطات الإرادية الاختيارية، لا الارتباطات الطبيعية كالأبوة والأمومة. إذ تقوم المجتمعات الآلية على الكثافة أو الازدحام، وتشكّل فيها العلاقات من خلال السنّ وعلاقات الدمّ والنسب والمناصب الوظيفيّة، بينما تقوم المجتمعات العضويّة على التلاحم والمحاولات الواعية المقصودة لتحقيق الترابط، وتشبه الأسواق حيث تتأسّس على العرض والطلب وتبادل المنافع والمصالح.

ومن هنا يلتقي موضوع هذا البحث بالنظرية فالمجتمع وأنظمتها وقيمه وعاداته وتقاليده في تطور وتغير بنائياً ووظيفياً، ولكن لا يخفى لما في هذه التصنيفات من تبسيط، لم يغب عن علماء الاجتماع، لأنّ الحياة البشريّة تحفل بدرجات وألوان مختلفة تمتزج فيها التقنيات بالمشاعر، والمصالح بالأعراف الاجتماعية، والعلاقات التلقائيّة بالعلاقات الواعية. لكنّه تبسيط مفيد على أي حال، لعرض سمات أو خصائص المجتمعات الافتراضية التي قد تبرز بعض التقابلات بينها وبين المجتمعات الواقعية التقليدية وهي كالتالي:-

- انهيار فكرة الجماعة المرجعية بمعناها التقليدي، فالمجتمع الافتراضي لا يتحدد بالجغرافيا بل بالأهداف والاهتمامات المشتركة .
- انهيار الحدود الجغرافية والمكانية والقبلية والعرقية؛ فلم تعد تلعب دوراً في تشكيل المجتمع الافتراضي، فهو مجتمع لا يعرف النوم أو الانقطاع، ففي كل وقت تجد من تتواصل معه من المجتمعات الافتراضية على مدار الساعة.
- هذه المجتمعات قد تؤدي إلى العزلة في كثير من الأحيان ، رغم انفتاحها المباشر على العالم ، فقد تمحورت العلاقات الاجتماعية على ما يكتب من رسائل على الفيسبوك وتبادلها ، بدل الزيارات العائلية والجلسات الأسرية ، فالأسرة التي تعيش تحت سقف واحد ينهمك كل فرد فيها في عالمه الافتراضي الخاص به .
- المجتمعات الافتراضية في الفضاء الإلكتروني تقوم على حرية الاختيار في مجملها، بعيداً عن الجبر والإلزام .

● المجتمعات الافتراضية فضاءات رحبة، مفتوحة للتمرد والثورة ، بداية من التمرد على قيم الأسرة وضوابطها الاجتماعية والأخلاقية وانتهاء بالثورة على المجتمع الواقعي والسلطة الحاكمة .

● تتسم المجتمعات الافتراضية باللامركزية إلى أن تنتهي بالتدريج إلى تفكيك الروابط الاجتماعية والهوية التقليدية والوطنية ثم إلى انغماس الهوية الشخصية في المكونات الافتراضية؛ فأعضاء هذه المجتمعات يرتادونها بأسماء وهمية أو مستعارة، ووجوه ليست وجوههم.

وعليه يمكن القول: إن ما لدينا في هذا العصر ليس مجرد علاقات عالمية فحسب، فهذه العلاقات تنمو وتتطور منذ قرون، وتختلف من وقت إلى آخر، وإنما لدينا ملامح واضحة لمجتمع عالمي، فلدينا نظام اقتصادي عالمي، يجري فيه تنسيق عمليات الإنتاج والتسويق على نطاق واسع، ولدينا عناصر معرفية وثقافية وهوية عالمية عبر شبكات التواصل الاجتماعي التي تغطي كل أجزاء العالم، ولدينا أفكار سياسية ذات صدى عالمي، وإمكانية قيام عمل سياسي منسق ووعي مجتمعي عالمي جديد.(كلارك، 2003: ص43)

الخاتمة:

لقد أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي، ضرورة أساسية في الحياة اليومية وكأداة للتعلم والمعرفة والتواصل والتفاعل بين الناس في كافة المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والترفيهية والأمنية، فهي تعد ثورة أو ظاهرة اجتماعية لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية - بعد مرحلة التصنيع - سمحت بانتقال المعلومة بسرعة الضوء عبر شبكات الاتصال، فغيرت أنظمة المعرفة والاتصال رأساً على عقب، وأسهمت في تشكيل قيم واتجاهات أفراد المجتمع.

ويمكن اليوم تأمل قائمة بسيطة لبعض الخدمات والتسهيلات التي تتيحها تقنيات وسائل التواصل الاجتماعي التي أصبحت شائعة بكثرة : كالحواسيب الشخصية في المنازل والمكاتب وبطاقات الائتمان، والرسائل النصية القصيرة في المناسبات الاجتماعية، وعمليات حجز جوازات السفر، ومواعيد الإقلاع والحجز على خطوط الطيران وفي الفنادق، وبرامج السياحة الافتراضية عبر الإنترنت، وقواعد بيانات المنازل الذكية والسيارات المعروضة للبيع حول العالم، وعروض الزواج العمل وفرصة، وأنظمة الطلبات والتسوق، وأنظمة الكشف الحاسوبي على أسعار السلع الاستهلاكية المشفرة ومجموعات النقاش على الإنترنت، والتعلم والتعليم عن بعد، والهواتف الذكية وأنظمة الأمن والمراقبة

ويبدو واضحا صعوبة تحديد تصور نهائي لتأثيرات وسائل التواصل الاجتماعي في الحياة الاجتماعية وعلاقتها المحورية بالمجالات الاقتصادية والسياسية والإعلامية والأمنية، رغم وفرة الدراسات المتخصصة في ظل قلة الإضافات وعدم تناسبها مع تعاضم تطور وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيراتها النوعية في كافة المجالات ، فقد تغيرت كثيرا من المجتمعات المحلية وكذا الحضرية تغيرات هامة من محدودية فكر العائلة أو العشيرة، والقبيلة وممارساتها وسلوكياتها وتقاليدها إلى مجتمع افتراضي عابر للحدود يكاد يشمل ثقافات العالم واقتصادياته، رغم وجود بعض التخوف من التدفق الشامل للمعلومات، والرغبة في استخدام هذه المعلومات لبناء قاعدة علمية واقتصادية دون مراعاة الخصوصيات القطرية والمحلية - وبالتالي - لابد من الإشارة إلى ضرورة إخضاع هذه الظاهرة للبحث بشكل معمق للحد من تأثيراتها السلبية التي باتت مقلقة لكل دول العالم في صورة إرهاب وقرصنة للمعلومات وتهريب للمخدرات وعمليات تجسس بين الدول - وتسييل الضوء عليها بحثا وخصوصا في الجوانب القانونية والتشريعية لتحديد المسؤوليات المترتبة على سوء استخدامها، وضمان حماية القيم والأعراف الاجتماعية.

وبالنظر إلى مخرجات هذه الوسائل فإنها خلقت نمطا جديدا من التواصل داخل الأسرة والمجتمع، وأن هذا النمط خلق حواجز للتواصل الفعلي، وأزال حواجز التواصل الافتراضي، بلغة جديدة يفهمها مستخدموها، تجاوزت مرحلة التعارف بين الأفراد، مما يستدعي المزيد من الفهم لتأثيرها في التفاعلات الاجتماعية، وهذا أمر ضروري يتوجب اكتشاف معان ضمنية عملية من جهة، وتطوير الاستراتيجيات لتدخلات المعلمين والآباء وعلماء النفس والتربويين في تحسين مخرجات إدارة وسائل التواصل الاجتماعي بتعليم الأفراد وخاصة الشباب كيف يعززون خبراتهم في استخدامها بزيادة الانتماء وتوكيد هوياتهم الاجتماعية. وزيادة الوعي بأهمية إيجابيات وسلبيات وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيرها على السلوك،.

وصاحب تطور وسائل التواصل الاجتماعي، تغيرًا في ملامح الحياة البشرية، فقد أصبح هذا العصر يفرض على الإنسان صعوبة العيش فيه، بدون أدواته الاتصالية التي تربطه بالمجتمع، إذ لا يستطيع العمل بدون الهاتف النقال أو جهاز الحاسوب، ويتطور تقنيات الاتصال تقلصت العلاقات الاجتماعية وسهلت كثير من الخدمات اليومية، فحلت الرسائل الالكترونية والتغريدات على تويتر والهواتف الذكية محل الرسائل الخطية والبرقيات البريدية، وحلت غرف الدردشة محل العلاقات والتفاعل الطبيعي في الجلسات الأسرية والاجتماعية، ولم يعد السفر ضرورة لرؤية الأقارب والأصدقاء، أو لغرض التجارة

أو الدراسة أو للبيع والشراء أو الحركة لتشغيل أجهزة المنازل الذكية .

ومع هذا فإن وسائل التواصل الاجتماعي لا تمثل العامل الأساسي في التحول من المجتمع المحلي التقليدي إلى المجتمع الافتراضي، ولكنها عامل مهم في تهيئة هذا التحول عن طريق تكوين الوعي في نظرة الإنسان إلى مجتمعه والعالم. ولكن هل من الممكن أن تحل المجتمعات الافتراضية محل المجتمعات الواقعية التقليدية، وتستطيع أن تخلق حضارة للعقل في الفضاء الافتراضي؟ أن الإجابة على هذا التساؤل تحتاج إلى مزيد من الدراسات والأبحاث المستقبلية خاصة في مجال علم الاجتماع.

وفي نهاية هذا العرض للأبعاد الأساسية لتأثير وسائل التواصل الاجتماعي "المعولة" على أنظمة المجتمع المحلي ودورها في إحداث نقلة نحو ما يسمى بالمجتمع الافتراضي بسماته ومفرداته اللغوية الغريبة على المجتمع المحلي، وخصائصه وقيمه المتنوعة وممارساته وآليات التعامل بين مكوناته التي اعتقد أن لها تأثيراً على الشخصية والهوية الوطنية ،

التوصيات:-

■ توعية أفراد المجتمع بشكل عام والشباب بشكل خاص بما يمكن القيام به اتجاه استخدام وسائل التواصل وتوجيههم للاستعمال الأمثل.

■ التأكيد على دور الآباء والأمهات في رعاية ووقاية الأبناء من مخاطر وسائل شبكة الاتصال من خلال التنظيم والمراقبة والتوجيه والمتابعة.

■ إجراء المزيد من الدراسات والأبحاث المستقبلية حول تأثير هذه الوسائل على الفرد والأسرة والمجتمع. من الناحية الاقتصادية والسياسية والأمنية. والعسكرية والبيئية. والإجابة على هذا التساؤل (هل من الممكن أن تحل المجتمعات الافتراضية محل المجتمعات الواقعية التقليدية، وتستطيع أن تخلق حضارة للعقل في الفضاء الافتراضي؟).

■ إتاحة الفرص بدون تمييز بين الجنسين في كل المناطق بما في ذلك الريفية منها، أمام التعليم والتدريب الجيد وبرامج بناء القدرات في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات .

■ الاستفادة من نمو دور تقنيات وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة في نقل المعرفة والتعامل معها واستثماره.

المراجع:

1. إبراهيم، مروان عبد المجيد ، أسس البحث العلمي، عمان، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، 2000.
2. أبو صبح، صالح ، "تأثير الإنترنت في الشباب"، عمان، دار العلم للنشر والتوزيع، 2004.
3. تشين، ميلتون، "دولة التعليم"، مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، أبوظبي، 2014.
4. تيماشيف، نيقولا - نظرية علم الاجتماع - ترجمة محمود عوده وآخرون - دار المعارف مصر ط 6 1980.
5. الجاسم، محمد ، "تأثير الإعلام الإلكتروني في التطور الاجتماعي والسياسي"، الفصل الرابع من كتاب-الأعلام العربي في عصر المعلومات، مركز البحوث والدراسات الاستراتيجية ابوظبي، 2004.
6. جبر، أحمد ، مجتمع المعلومات، القاهرة، المكتبة العصرية، 2006.
7. خضر، حلمي، "تأثير الاتصال عبر الإنترنت في العلاقات الاجتماعية"، مجلة جامعة دمشق، عدد 2-1 ، 2004
8. الزرن، جمال، "تدويل الإعلام العربي الوعاء ووعي الهوية"، سوريا، دار صفحات للدراسات والنشر، 2007.
9. الصرامي، ناصر صالح ، شبكة الإنترنت وأثرها على الفرد والمجتمع، مجلة جامعة الملك سعود، الرياض، عدد 10 ، 2006،.
10. طاحون، عدلي علي ، "النظريات الاجتماعية المعاصرة"، الإسكندرية، 1995.
11. عبد الستار منى ، البعد الاجتماعي للعولة وتأثيرها على الأسرة، مجلة جامعة بابل، 2012-2013.
12. عذب، حسام الدين محمود، "إدمان الإنترنت علاقته ببعض أبعاد الصحة النفسية"، لدى طلاب المرحلة الثانوية، المؤتمر العلمي السنوي للطفل والبيئة.جامعة عين شمس 2001.
13. عمارة، محمد، "مخاطر العولة على الهوية الثقافية"، نهضة مصر للطباعة، 1998،
14. عودة، محمود، "أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي"، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.
15. الصوان، عياد نجاة إبراهيم، مجتمع الانترنت في ليبيا المضمون الإعلامي والآثار الاجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة 7 أبريل، الزاوية 2008.
16. غريب، عبد الكريم، سوسيولوجيا المدرسة، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء 2003.
17. فايز، أبو عيشة فيصل ، "الإعلام الإلكتروني"، الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2009.
18. الفقي، إبراهيم، "البرمجة اللغوية والعصبية وفن الاتصال اللامحدود"، المركز الكندي للتنمية البشرية، 2001.
19. فكار، رشدي، "في الاجتماع العربي المعاصر"، نحو نظرية حوارية إسلامية، المجلد الثالث، دار النشر العالمية، جنتير باريس، 1990.

20. قاسم أمين، تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر بدون تاريخ.
21. القرم، خالد الفيصل، "شبكة الأنترنت وجمهورها في مدينة الرياض"، مجلة حاملة الملك سعود، المجلد العاشر، العدد الثامن 2004.
22. كلارك أيان، العولة والتفكك، ترجمة مركز البحوث والدراسات الإستراتيجية، أبوظبي 2003.
23. محمود محمد احمد، اتجاهات شباب الجامعة الليبية، نحو استخدام شبكة الأنترنت، مجلة الرأي العام، كلية الإعلام جامعة، القاهرة، 2005.
24. مريم، بن جريد، "تأثير الأنترنت في العلاقات الأسرية" رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة سبها، 2015.
25. معروز، عبد العالي، "الأنترنت والاستلاب الثقافي"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011.
26. هسي، مرمادول، مستقبل وسائل الإعلام- هكذا يُصنع المستقبل، ترجمة مركز البحوث والدراسات الإستراتيجية، أبوظبي، 2001.
27. هيل، مايكل، "أثر المعلومات في المجتمع، تعريب مركز الإمارات للدراسات الإستراتيجية"، أبوظبي، 2004 .
28. البياتي، ياس خضير، النظرية الاجتماعية جذورها التاريخية وروادها، الجامعة المفتوحة طرابلس، 2002.